القدس الشريف
في تاريخ العرب والإسلام

(القسم الثاني)*

الاستاذ عبد اللطيف الطيباوي

— ١١ —

كانت الانتخابات النيابية المذكورة أعلاه من أهم حوادث التاريخ العثماني الحديث ، لكن أثرها في القدس كاد يكون مقصورا على ارسال رئيس بلديتها يوسف ضيا الخالدي نائبا في مجلس لم يُعَمَّر أكثر من بضعة شهور ، لأن السلطان عبد الحميد عطّله الى أجل غير مسمى دام نحو ثلاثين سنة حكم السلطان أثناءها حُكماً مطلقاً . وتمهيداً لدرس حالة القدس في تلك المدة وذكر الهجرة اليهودية الجديدة من روسيا لاغنى عن توضيح الفرق بين القادمين منها والمقيمين قبلهم في القدس من طائفة أشْكِنازيم . فالمقيمون كانوا فقراء كسالى شديدي التعصب . قاوموا كل من حاول تحسين حالتهم من اليهود أو غير اليهود ، فقاطعوا المدارس الحديثة التي فتحها لأبنائهم وبناتهم المبشرون البريطانيون ، وعارضوا محاولة المُحسِن البريطاني سِرْ مُوزِس مُنْتفِيُوري إحصاءهم تمهيداً لإسعافهم من ماله لأنهم خافوا أن يُصيبهم الوباء(٦٦) .. وعندما وصل مبلغ من المال

---

* أنظر القسم الاول من هذا المقال في العدد السابق (ج ٤ ـ م ٥٤)

(٦٦) أغْوى الشيطانُ داود فأحصى اليهود ، فغضب عليه ربه وأرسل الوباء في الارض (أخبار الايام الاول : الاصحاح ٢١) . وقصة المحسن اليهودي مع أحبار اليهود ذكرها القنصل البريطاني في تقرير ـ (22 August, 1849) Fo/78/803

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من انكلترا ليُنْفَق على تعليم اللغة العربية لأبنائهم رفضوا المشروع وهددوا المعلّم وهمّوا بهدم غرفة التدريس(٦٧) .

أما القادمون فجاء معظمهم اضطراراً لا اختياراً. فقد اتُّهِمَ يهود روسيا بأنه كانت لهم يد في اغتيال القيصر اسكندر الثاني ، فهوجِموا وقُتِل بعضهم وأُتلفت بعض أملاكهم ، ثم صدرت أنظمة حددت أماكن اقامتهم ونوع ما يمكنهم مزاولته من الاعمال ونسبة ما يُقبَل من أبنائهم في مدارس الحكومة . وكان عددهم حينئذ نحو خمسة ملايين ، فأخذ كثيرون منهم يهاجرون الى أوروبا الغربية والى أمريكا، والتجأ بعضهم الى أراضي الدولة العثمانية ، وبعض هؤلاء وصلوا الى فلسطين والقدس ، فعددهم بالنسبة الى عدد من هاجر الى أوروباوأمريكا كان ضئيلا ، لكنه كان عظيماً بالنسبة الى ماكان في القدس من سكان مسلمين ونصارى .

وكان معظم القادمين من المتعلمين تعليما حديثا ومن أصحاب الحرف، وكان فيهم عدد غير قليل من « مُحِبّي صهيون » الذين عُدّوا من طلائع الصهيونية قبل تأسيسها الرسمي . وسكن هؤلاء في بيوت جديدة خارج أسوار المدينة كان أول ما بُني منها على الطريق الى يافا والى الغرب من المسكوبية. وسرعان ما زاحم هؤلاء اليهود سكان القدس على وسائل الرزق من تجارة أو صناعة ، وبلغ الضيق أشده في سنة ١٨٩١ عندما أرسل المسلمون احتجاجا الى الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) في استانبول(٦٨) ، فقد رأوا كما رأت الحكومة أن المهاجرين كانوا تحت حماية أجنبية ، وتمسكوا كما تمسك

(٦٧) قصة رفض تعليم اللغة العربية ذكرها القنصل البريطاني مُور في تقرير ـ
Fo/195/1263 (11 June, 1879)

(٦٨) احتجاج أهل القدس ذكره القنصل البريطاني ذ. كنسون في تقرير ـ
Fo/195/1727 (16 July, 1891)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مَن كان قبلهم في القدس من طائفتهم بالجنسيات الاجنبية للاستفادة من الامتيازات ، وقد ساعدهم قناصل روسيا ، لا حُبّاً بهم بل رغبة في خلق الصعوبات للحكومة العثمانية ، فهذه كانت تخشى أن تكوّن الهجرة اليهودية مشكلة دينية او قومية جديدة تُضاف الى ما كان عندها من هذه المشاكل . وهكذا حالت معارضة الدول الاوروبية دون تنفيذ القوانين العثمانية التي صدرت منذ سنة ١٨٨١ لتحديد هجرة اليهود وامتلاكهم للارض . وكانت هذه المعارضة العامل الاول في إخفاق التدابير العثمانية، يضاف اليها عاملان ثانويان وهما قلة مقدرة الموظفين الصغار وقبول الرشوة.

ولم يكن لهذه الهجرة بَعْدُ صفةٌ سياسية ظاهرة ، وآية ذلك أن الاحتجاج الذي أرسله أعيان القدس الى استانبول كان مبنيّاً على أسباب أقتصادية لا سياسية . ولكن الصفة السياسية للهجرة اليهودية أصبحت واضحة بعد المؤتمر الصهيوني الاول في سنة ١٨٩٧ والمطالبة بوطن لليهود في فلسطين فسَّره كتّابهم تفسيرا قوميا : سياسيا واقتصاديا . ولعل ذلك كان من أهم أسباب فشل هَرْتْسِل زعيم الصهيونية عندما حاول إغراء السلطان عبد الحميد بالمال ليوافق على البرنامج الصهيوني .

وقلّما يذكر المؤرخون لعبد الحميد هذه الفطنة السياسية ، واهتمامهم بتفصيل استبداده جعلهم ينسون ما تَمّ في عهده وبتدبيره من التقدم في سائد أنحاء المملكة . أما القدس فقد أولاها جانباً كبيراً من اهتمامه الشخصي ، وأرسل اليها متصرفين مشهوداً لهم بالمقدرة والخبرة تدرب بعضهم في ديوانه الخاص . ولعل هذا التدريب هو الذي دلّهم الى ضرورة انشاء دائرة خاصة بالاجانب وشؤونهم في مكتب المتصرف ،فهذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدائرة كانت في أواخر القرن التاسع عشر وأول هذا القرن أكثر الدوائر شغلا وأكثرها تنظيماً .

واكتسب عبد الحميد اخلاص علماء المسلمين في القدس بعدة وسائل منها سياسة الجامعة الاسلامية التي اتخذها تثبيتاً لعرشه ودفاعاً عن مملكته أمام مطامع الدول الاوروبية . صحيح أنه لم يُعِد تأسيس المدارس الاسلامية الاصلية في القدس ، لكنه أنشأ فيها مكاتب جديدة سدَّت في نظره حاجة سكانها المسلمين ، حتى إنه أمرهم بعدم ارسال بنيهم الى المدارس الاجنبية[٦٩] . وفي عهده أُكْمِل تعمير المسجد الاقصى ومسجد قبة الصخرة الذي بدأ في عهد محمود الثاني واستمر في عهد عبد المجيد وعبد العزيز . وأرسل السلطان عبد الحميد الهدايا الى علماء القدس استراراً لعادة ارسال « الصُرة » ، وفرش أرض المسجدين في الحرم الشريف بالسجاد العجمي على نفقته الخاصة .

أما سياسة عبد الحميد الخارجية وأثرها في القدس فقد أخذت تتضح حالاً بعد اعتلائه العرش ، فروسيا كانت عدوة قديمة ، وبريطانيا وفرنسا من الدول العظمى احتلت كل منهما جزءاً من البلاد الاسلامية التي كانت تحت السيادة العثمانية . أما الامبراطورية الالمانية فلم تكن لها مطامع استعمارية في أملاك الدولة العثمانية ، وقد لمَّح بِسْمارك في مؤتمر برلين أن غرض ألمانيا الوحيد كان التجارة لا إرغام الدولة العثمانية على اتِّباع سياسة معينة في ادارة شؤون رعاياها من النصارى . لكن اهتمام ألمانيا بالقدس بدأ قبل تأسيس الامبراطورية عندما شارك الملك فَرِدْرِك وليم

(٦٩) كما جاء في تقارير الجمعية الكنسية التبشيرية (البريطانية) :
C. M. S. Proceedings : 1883 - 84 (p. 61) ; 1884 - 85 (p. 57) ; 1887 - 88 (p. 68)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرابع بريطانيا في إنشاء الأسقفية البروتستانية • ثم في سنة ١٨٦٨ جاءت طائفة ألمانية دينية وحلت في يافا ، وبعدها جاءت جماعات أخرى حلت في أماكن مختلفة من فلسطين وأنشأت مستعمرات زراعية ، وجاءت جماعة الى ضواحي القدس وأنشأت حيّاً ألمانياً بقرب البقعة •

وكان السلطان قد أهدى لملك بروسيا قطعة أرض في مدينة القدس بقرب كنيسة القيامة كان قد أقام عليها فرسان القديس يوحنا في زمن الصليبيين • وقد سُلّمت الارض رسميا لولي عهد بروسيا عندما زار القدس في سنة ١٨٦٩ • وأقام الالمان عليها « كنيسة المخلص » التي دشّنها الامبراطور غليوم الثاني في سنة ١٨٩٨ • فزيارة الامبراطور للسلطان عبد الحميد في تلك السنة كانت رمزاً للسياسة التي رسمها بسمارك • وكرّم السلطان ضيفه فأمر بفتح ثغرة في سور القدس بجانب باب الخليل من اليمين لدخول الامبراطور • ولكن رواية شاهد عيان تؤكد أنه خلافاً للشائع لم يدخل المدينة راكباً جواده بل راجلا • والراوي هو المراسل الخاص لجريدة التايمس الذي رافق الامبراطور في زيارته ، قال ان الامبراطور ترك مخيّمه على ظهر جواد وتركته الامبراطورة في عربة ،فلما وصلا باب الخليل ترجّلا ودخلا المدينة مشياً على الاقدام ، وكانت طريقهما بأمر السلطان قد فرشت بالسجاد وسعف النخل ، فذهبا أولا الى كنيسة القيامة ثم الى كنيسة المخلص حيث دشّنها الامبراطور بموكب فخم(٧٠)•

وهكذا ازداد اتصال القدس بالعالم ، وكثر مجيء العظماء والحجاج والتجار والسواح اليها ؛ وسهّل ذلك اكمال الخط الحديدي من يافا اليها في سنة ١٨٩٢ ، فصارت البواخر تأتي بالحجاج الى يافا فيسافرون منها

(٧٠) أنظر جريدة التايمس (لندن) :
The Times, 1 November, 1898, p. 5, col. 3

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالقطار الى القدس بدلا من ركوب الدواب على طرق غير معبدة • أحصى القنصل الفرنسي عدد حجاج النصارى الذين وصلوا القدس بالقطار بعد فتح الخط الحديدي بثلاث سنوات فكان أربعة عشر ألفاً زاد عدد حجاج الروس منهم على ثمانية آلاف•وتم اتصال القدس بأوروبا، عن طريق يافا ، بواسطة التلغراف في سنة ١٨٦٤[٧١] • أما البريد (البوسطة) فكان على نوعين : القنصلي الاجنبي والعثماني الرسمي ، والثاني ظهر بعد الاول • ولم يكن البريد القنصلي مقصورا على حاجة القنصليات الرسمية أو حاجة مَن وُجِد من رعايا دولها في القدس ، بل كان مفتوحا للعثمانيين وغيرهم اذا دفعوا رسومه العالية • ولم يَحتَج الاجانبُ البريد العثماني ، وتجنّبه العثمانيون الذين آرادوا تجنب المراقبة الرسمية ، فالتجؤوا خلسة الى البريد القنصلي •

ولم يكن في القدس نظام عام لتوريد الماء حتى عهد الانتداب البريطاني ، ففي سنة ١٩٣٥ وصلها الماء بكثرة من رأس العين في السهل الساحلي بواسطة الانابيب والمضخّات • وصعوبة توريد الماء الى القدس قديمة ، ففي عهد الرومان جُلِبَ الماء اليها بأقنية من عين أرطاس وبرك سليمان الى الجنوب من بيت لحم ، ثم انقطع ذلك فاعتمد السكان عبر انقرون على ماخزنوه من ماء المطر في آبار قلّما خلت منها البيوت الكبيرة وكثرت في ساحة الحرم الشريف • وقلة الماء في المدينة تفسِّر كثرة ما أنشأ السلاطين وغيرهم من السُّبُل لماء الشرب فيها • وفي مطلع القرن العشرين أُعيد توصيل الماء من عين أرطاس الى بركة السلطان خارج باب الخليل•

(٧١) ورد ذلك في تقرير مبشر برتستانتي كان في القدس :

Annual Report, London Jews Society, 1864, p. 286

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(وقبل نجاح مشروع رأس العين وبعده استمدت القدس الماء أيضا من عين فارَه الى الشمال الشرقي منها ومن عين العَرّوب على الطريق الى الخليل) .

ومراقبة البريد المذكورة أعلاه تحتاج الى شيء من التفصيل ، فغرضها كان منع دخول الكتب والمجلات والصحف التي انتقدت الاستبداد الحميدي . وكان من وظائف وزارة المعارف مراقبة المطبوعات والحرص على نقاء الكتب المدرسية من الافكار المثيرة ، وعلى منع استعمال كل كتاب أو مجلة أو صحيفة فيها شيء من تلك الافكار ، تلميحاً أو تصريحاً . وقد نجحت مراقبة برامج التدريس وثمرات المطابع الى درجة كبيرة ، أما مراقبة ما دخل البلاد مع الاجانب أو بواسطة بريدهم فكانت على وجه الاجمال فاشلة .

وذكر المطبوعات يستدعي الاشارة الى ما كان في القدس من المطابع ، وما نُشر فيها من كتب ومجلات وصحف ، وما وجد فيها من حركة أدبية ، من أواخر القرن التاسع عشر الى خلع عبد الحميد في سنة ١٩٠٩ .

تأخر نشوء الطباعة عند المسلمين في الدولة العثمانية لأن العلماء منعوا طبع القرآن الكريم والحديث الشريف وما يتعلق بهما ، ولم يسمحوا بطبع غير ذلك من الكتب إلا بعد صدور فتوى شرعية وإرادة سلطانية . ولما رُفع المنع أُسّست مطبعة أميرية في استانبول ثم مطبعة بولاق في مصر . وقبل ذلك وُجدت مطابع بسيطة في أديرة لبنان وغيرها اقتصرت على طبع الكتب الدينية . وأول المطابع التي أُسست في القدس حوالي سنة ١٨٥٠ كانت تابعة للاديرة ، وهي مطبعة دير الروم (مطبعة الارض المقدسة) ومطبعة الآباء الفرنسيسكان ومطبعة دير الأرمن ، وكانت هذه في حارة الشَرَف الاسلامية ، وكذلك مطبعة ليهودي اسمه اسحق ليفي أسست

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في سنة ١٨٩٦[٧٢] ، وهذه الحارة كانت الى الشرق من حارة اليهود وفيها استأجروا بيوتا عديدة منذ القرن السابع عشر وقبله كما ذكر آعلاه .

ووجدت حروف عربية في كل مطبعة من المطابع النصرانية المذكورة ، وقد طُبع فيها بالاضافة الى الكتب الدينية ، بعض كتب التدريس وبعض الاعلانات الرسمية والتجارية . وفي العقد الاخير من القرن التاسع عشر أسّس جورج حنانيا مطبعة أدارها بنفسه ، وفيها طُبِعت بعض الصحف وعدد غير قليل من كتب التدريس . وجميع هذه المطابع كانت في البدء بسيطة جدا مكونة من آلات تحرك باليد أو القدم وبعض جواريرالحروف.

ولم يظهر من الصحف شيء أثناء العهد الحميدي الاّ جريدةرسمية وهي « القدس الشريف » ، صدرت باللغتين العربية والتركية مرة في الاسبوع من مكتب المتصرف . وبعد اعادة العمل بالدستور في سنة ١٩٠٨ ظهرت في وقت واحد تقريباً أربع صحف وثلاث مجلات . أما الصحف فكانت « النجاح » لمحررها الشيخ علي الرياوي ، و « القدس » لمحررها جورج حنانيا (صاحب المطبعة التي ذكرت أعلاه) ، و « الانصاف » لمحررها بندلي مشْحور ، و « المنادي » لمحررها محمد المغربي . وأما المجلات فكانت « الاصمعي » لصاحبها حنا العيسى ، و « النفائس » لصاحبها خليل بيدس ، و « المنهل » لصاحبها محمد المغربي (محرر صحيفة المنادي) .

كانت الصحف تصدر مرة في الاسبوع وبعضها مرتين دون انتظام، والمجلات كانت تظهر مرة كل نصف شهر أو شهر دون انتظام . ولم تختلف

(٧٢) تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني تأليف يعقوب يهوشع (القدس، ١٩٧٤) ص ٨ ، ٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مادة المجلات عن مادة الصحف كثيرا ، فكلها اهتمت بنشر الاخبار المحلية ثم الاخبار العامة ، مع نُبَذٍ أدبية وتاريخية وبعض القصص والقصائد . وكلها اهتمت بموضوعَي الصهيونية والهجرة اليهودية وأثرهما في فلسطين والقدس . ومن أشهر كتاب الصحف والمجلات إسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني وعبد الله مخلص وعارف العارف وحبيب الخوري (وهذان كانا طالبين الاول في جامعة استانبول والثاني في الكلية الانكليزية في القدس) . واشتهر من المحررين الشيخ علي الريماوي وخليل بيدس،الاول بشعره والثاني بقصصه المترجمة عن الروسية . وكان الريماوي مُتلوِّناً متقلباً ، وأغرب ذلك موقفه من خوف العرب على لغتهم بسبب تغليب اللغة التركية عليها في المكاتب الرسمية ،فكتب الريماوي تحت عنوان « العربية والتركية شقيقتان فما بالهما تختصمان ؟ » زاعماً أن لا خوف على اللغة العربية أو القومية العربية من تعلُّم اللغة التركية ، فذلك واسطة لترقي العرب في الوظائف الرسمية(٧٣) .

والكتاب المذكورون كانوا أركان الحركة الادبية في القدس ، ومن آثارهم « جمعية الآداب العربية » التي تأسست سنة ١٨٩٨ ، وعُنيت بالخطابة والكتابة والتعليم(٧٤) . أما الكتب التي نُشرت فكان معظمها للتدريس مع بعض التاريخ والادب . ومن المؤلفين المقدسيين ، غير الذين ذكروا سابقا ، يوسف ضياء الخالدي الذي ألَّف رسالة عن اللغة الكردية ونشر مجموعة أشعار لبيد . ومنهم روحي الخالدي الذي ألَّف كتاب « علم الادب عند الفرنج والعرب » وكتاب « الانقلاب العثماني »وكتاب « المقدمة في المسألة الشرقية » . ومنهم نخلة زُرَيْق الذي كان يعلِّم اللغة

(٧٣) جريدة النجاح الصادرة في الثامن من نيسان سنة ١٩١٠

(٧٤) راجع مقالتنا عن الجمعية في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٧٤) ص٨٧١-٨٨١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العربية في الكلية الانكليزية في القدس ، واشتهر بالتعليم أكثر من اشتهاره بالتأليف ، اذ لا يُذْكر له غير مجموعة أشعار نشرها في سنة ١٩٠٣ بالاشتراك مع عيد سالم[٧٥] .

كل ما سبق من الانتاج الادبي والصحافي كان لمنفعة عدد قليل من القراء لِنُشُوءِ الامية . وهؤلاء القراء القليلون وجدوا كثيرا مما يطلبون في المطبوعات التي وصلت القدس من استانبول أو القاهرة أو بيروت . والمكاتب كان شأنها منحطاً ، فاذا استثنينا مكتبة المسجد الاقصى فالمكاتب العامة لم تكن بعد معروفة . وما وُجِد من كتب التراث الاسلامي أو العربي كان مخطوطا ومحفوظا في خزائن العائلات . ولعل أشهر هذه الخزائن المكتبة الخالدية التي رتّبها الشيخ طاهر الجزائري أثناء اقامته في القدس (وهو الذي رتب أيضا المكتبة الظاهرية بدمشق) ثم كتب لها « برنامجاً » الشيخ راغب الخالدي . ولمّا زار المستشرق الروسي كْراتْشْكوفسكي القدس في سنة ١٩١٠ رأى المكتبة فقال عنها باختصار « وهناك في القدس ، في مكتبتها المهملة التي تسمى بالخالدية .. ذكريات تاريخ قديم » . قال ذلك في مذكرات نشر فيها صورة أربعة من أبناء القدس لاقاهم فيها . وهم بندلي الجوزي (الاستاذ بجامعة باكو) وجميل الخالدي (صاحب المخطوطات) واسعاف النشاشيبي (الشاعر) وخليل السكاكيني المعلم[٧٦] . ومن أشهر مكاتب العلائلات الاخرى التي بُعثِرت أو

---

(٧٥) الكتاب العربي الفلسطيني (نشرته لجنة الثقافة العربية في القدس سنة ١٩٤٦) ص ٢٢ (السطر الثالث) .

(٧٦) ترجمت المذكرات الى اللغة العربية بعنوان « مع المخطوطات العربية » ونشرت في موسكو سنة ١٩٦٣ . وذكر المكتبة الخالدية وارد على صفحة ٥٦ ، وصورة الادباء الاربعة تقابل صفحة ٤١ ، والاوصاف : صاحب المخطوطات ، والشاعر ، والمعلم ، كلها موجودة في الاصل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اقتسمها الورثاء مكتبة آل الموقت (أخذ بعض كتبها الشيخ طاهر الجزائري الى دمشق) ومكتبة آل البديري ومكتبة آل أبي السعود (كانت في الزاوية الفخرية الملاصقة لحائط الحرم الشريف عند زاويته الجنوبية الغربية ، وقد هدمها الصهيونيون واغتصبوا أرضها بعد سنة ١٩٦٧).

أما مؤهلات محرري الصحف وكتابها حتى سنة ١٩١٤ فكانت مختلفة باختلاف المدارس الاسلامية أو النصرانية أو الاجنبية التي تعلّموا فيها . وفيما يلي بعض التفصيل عن أربعة منهم على سبيل المثل لا الاحاطة . فالريماوي (١٨٦٠ ــ ١٩١٩) كان تعلّمه اسلاميا صِرفاً، إذ بعد إكمال كُتّاب قريته تعلّم في الازهر أكثر من عشر سنوات قبل شهادة العالمية ، ولا يُعرف له كتاب ، ولكن مقالاته وقصائده ملأت صحف عهده ومجلاته . وبيدس (١٨٧٤ ــ ١٩٤٩) تعلّم بمدرسة طائفة الروم الارثوذكس في الناصرة ثم بالمدرسة العالية التي أنشأها الروس لأبناء تلك الطائفة فيها ، فتعلّمه كان عربياً روسياً ظهرت ثماره فيما ترجم الى العربية من القصص الروسية والتاريخ وما ألّف من كتب التدريس ، حتى عُدّ أكثر كتّاب عهده إنتاجاً . والسكاكيني (١٨٧٨ــ١٩٥٣) تعلّم بمدرسة طائفة الروم الارثوذكس بالقدس ثم بمدرسة غُوبات التبشيرية الانكليزية ، ودرس العربية على نخلة زريق الذي كان يعلّمها بمدرسة الشبان الانكليزية (عُرفت فيما بعد بالكلية الانكليزية) التي كانت تديرها الجمعية الكنسية التبشيرية ، فتعليمه كان عربياً انكليزياً ، وكتب في هذا الدور « الاحتذاء بحذاء الغير » ولا يُعرف غير عنوانه . والنشاشيبي (١٨٨٢ــ١٩٤٨) تعلّم بكُتّاب في القدس ثم بمدرسة الحكمة في بيروت ، ودرس فيها اللغة العربية على عبد الله البستاني ، فتعلّمه كان عربياً خالصاً ، وكتب في هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدور « أمثال أبي تمام »[٧٧] .

- ١٢ -

أخفق غير واحد من المستبدين قبل عبد الحميد وبعده في مقاومة الافكار المعارضة لاستبدادهم ، ومن عبَر القدَر أن أفكار الثورة على عبد الحميد نَسَت وأثمرت في المكاتب العالية . من عسكرية ومدنية ،التي اهتم هو بانشائها ، فخريجوها هم الذين أرغموه في ثورة سنة ١٩٠٨ على اعادة العمل بالدستور ودعوة مجلس النواب (المبعوثان) للاجتماع بعد تعطيل دام نحو ثلاثين سنة . وقد مثّل متصرفية القدس في دورة المجلس الاولى سعيد الحسيني وروحي الخالدي وحافظ العيد (ومثّل سنجق نابلس الشيخ أحمد الخمّاش وسنجق عكا الشيخ أسعد الشقيري).

وسارت الحكومة العثمانية بعد اعادة العمل بالدستور بحسب رغائب « جمعية الاتحاد والترقي » التي سبّبت الانقلاب . ولكن الشؤم لازمها منذ اليوم الاول ، فقد اغتنمت بلغاريا اشتغال الجيش العثماني باضطراب داخلي فأعلنت استقلالها عن الدولة العثمانية ، وأعلنت النمسا ضمّ مقاطعتين عثمانيتين في البلقان كانتا تحت ادارتها الموقتة . ولمّا لم تستطع جمعية الاتحاد والترقي أن تحرك ساكناً لإلغاء ما حدث أو مقاومته، تحوّل الفرح بإعادة العمل الدستور الى استياء عام ، وقامت ثورة في استانبول ظُنّ أن عبد الحميد كان محركها ، فأدى ذلك الى خلعه واعلان أخيه محمد رشاد سلطاناً في نيسان سنة ١٩٠٩ .

---

(٧٧) تراجم الاربعة مأخوذة عن « أعلام الفكر والادب في فلسطين » ليعقوب العويدات (عمان، ١٩٧٦) : الريماوي (ص ٢٢١) ، بيدس (ص ٦٧) ، السكاكيني (ص ٢٧٣) ، النشاشيبي (ص ٦٢٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخيَّبت جمعية الاتحاد والترقي ، ورئاستها الثلاثية التي تكونت من أنور وطلعت وجمال ، آمال العرب بإهمال تطبيق مبدأ المساواة بين العرب والاتراك في ادارة الدولة ، ومبدأ اللامركزية في حكم الولايات العربية، ومبدأ تحسين حال اللغة العربية في مدارس الحكومة ودواوينها • وزاد الحال سوءاً اتجاه" جديد في سياسة جمعية الاتحاد والترقي وهو إعلاء شأن العنصر التركي ولغته على حساب العناصر واللغات الاخرى في المملكة• ولا يقل عن هذا سوءاً ما تداوله الناس من أن بعض رجال الجمعية المذكورة كانوا تحت تأثير اليهود والماسونية وان اهتمامهم بالاسلام كان سطحياً•

وهكذا واجه العرب بعد الانقلاب العثماني ، في القدس وفي فلسطين اجمالا، مسألتين خطيرتين: أولاهما الهجرة اليهودية الجديدة وهدفها السياسي، وثانيتهما مستقبل العرب والعربية في دولة عثمانية فقدت كثيرا من صفتها الاسلامية • وواجه علماء المسلمين في القدس مسألة ثالثة وهي استمرار تدهور أحوال الاوقاف الاسلامية منذ وضعها محمود الثاني تحت ادارة وزارة جديدة أنشأها في استانبول• أما الهجرة فقد فهم العرب، على اختلاف طبقاتهم هدفها السياسي حالا بعد إعلانه في المؤتمر الصهيوني الاول، فكتب يوسف ضياء الخالدي تنبيها الى هرتسل أرسله بواسطة رئيس حاخامي فرنسا ، بعد محاولة هرتسل اغراء السلطان عبد الحميد بالمال وفشله• وفي سنة ١٩٠١ ذكر ألْبرت عَنتابي ، ممثل الشركة اليهودية الاستعمارية في تقرير الى رئيسها أن الفلاحين العرب سألوه « هل صحيح أن اليهود يريدون الاستيلاء على هذه البلاد ؟ » وبعد عشر سنوات ذكر عَنْتابي في تقرير آخر في سنة ١٩١١ أن فلاحا عربياً سأله « هل صحيح أن اليهود يستعدون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لانتخاب ملك لهم في القدس ، وهل سيكون أجنبيا أو يتكلم اللغة العربية ؟ »(٧٨) .

فاذا كان هذا ما فهمه العربي الأمي فلا حاجة الى تفصيل ما فهمه المتعلم وكتاب الصحف والمجلات في القدس ، أو حملات صحيفة «الكرمل» (حيفا) أو « فلسطين » (يافا) ، أو صدى ذلك في الصحف والمجلات العربية في دمشق (كالمقتبس) والقاهرة (كالمنار) واستانبول (كحضارة العرب) ، أو شرح احتجاج روحي الخالدي وسعيد الحسيني في مجلس المبعوثين في سنة ١٩١١ ، فكل الصحف والمجلات والكتاب والنواب فهموا أن غرض الصهيونية انشاء دولة يهودية في فلسطين على حساب سكانها العرب . ففي الوقت الذي سأل الفلاحون سؤالهم المذكور أعلاه كتبت مجلة المنار تقول إن غرض الصهيونية اعادة السلطان والملك الى شعب اسرائيل ... والاستيلاء على البلاد المقدسة لتكون مقر ملكهم. وحوالي الوقت الذي سأل الفلاح الثاني سؤاله كتبت المجلة نفسها مقالة أخرى قالت فيها : « ان الصهيونيين اذا تمّ لهم مايريدون فانهم لايُبقون في أرض الميعاد مسلماً أو نصرانياً »(٧٩) .

وحرّكت الاحتجاجات المستمرة الحكومة العثمانية فوضعت مشاريع قوانين لتَقْوية أنظمة الهجرة واستملاك الارض ، ولكن مثلي الدول الاجنبية احتجوا عليها ، وزعموا أنها تُنقص مما لرعايا دولهم من

---

(٧٨) ورد السؤالان في تقريرين رسميين كتبهما ألبرت عنتابي ، الاول في ٢٧ أيار سنة ١٩٠١ والثاني في ٢١ حزيران سنة ١٩١١ ، واقتبسهما مؤلف يهودي في كتابه :
M. J. Mundel, The Arabs and Zionism before World War I (University of California Press, 1976,), p.p 42, 121

(٧٩) مجلة المنار : المجلد الرابع (يناير ١٩٠٢) ص ٨٠١ ـ ٨٠٩ ، والمجلد السابع عشر (١٩١٤) ص ٦٩٧ ـ ٧٠٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الامتيازات ، وفي الوقت نفسه كتب مُثل الصهيونية في استانبول الى الحكومة ، مُلَمِّحاً الى قوة اليهود في مصارف أوروبا ، إن تنفيذ القوانين الجديدة قد يُعيق الحصول على قروض لخزينة الدولة • وهكذا قُتلت مشاريع القوانين الجديدة بتأثير الاجانب ، واستمرت الهجرة واستمر استملاك الاراضي بتأثيرهم • وفتح الصهيونيون في يافا في سنة ١٩٠٣ فرعاً للشركة الانكليزية ــ الفلسطينية (وهي بنك متفرع من رأس المال الاستعماري اليهودي المسجل في لندن) ، ثم فتحوا في يافا أيضاً في سنة ١٩٠٨ مكتبا ليشرف على مصالحهم • ولم توافق الحكومة العثمانية في البدء ، ولكن تدخّل السفير البريطاني في استانبول أرغمها على الموافقة• أما المصرف فقد توسع بسرعة فأنشأ له فروعاً في القدس وفي غيرها من البلدان الفلسطينية •

أما المسألة الثانية التي واجهها زعماء العرب في القدس ، مع غيرهم من الزعماء في الولايات العربية ، فكانت أيضا عسيرة الحل • فأكثرهم رغبوا في البقاء ضمن الدولة العثمانية مع شيء من الاستقلال الداخلي ، وأقلّهم رغبوا سراً في الاستقلال التام ، ولكنهم لم يروا بَعْدُ سبيله واضحاً • ولا شيء أدل على المنهجين من الانتماء الى الجمعيات التي كثرت بعد اعلان الدستور ، فأهل المنهج الاول أسسوا في القدس فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي وفرعاً لجمعية الاخاء العربي العثماني • وأهل المنهج الثاني انتسبوا الى جمعيات سرية أسسها بعض طلاب الجامعات أو ضباط الجيش • وظنّ الأوّلون أنهم بلغوا مأربهم باتفاق تمّ بين ممثل الجمعيات العربية(العلنية) ووزير الداخلية في سنة ١٩١٣ • وأهم نصوص هذا الاتفاق : تمثيل العرب في مجلس الوزراء وادارة الولايات ، والتعليم باللغة العربية وقبولها لغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رسمية في دواوين الحكومة ، وجعل الاوقاف المخصصة لمنافع محلية تحت ادارة محلية(٨٠) . (وجاءت الحرب العامة في السنة التالية ، فأُجِّل تنفيذ أهم شروط الاتفاق .)

يظهر من النقطة الاخيرة في الاتفاق أن الشكوى من تدهور الاوقاف كانت عامة ولم تقتصر على طبقة العلماء ، إذ لما ظهرت صحف حُرَّة في القدس بعد اعادة العمل بالدستور عالجت الموضوع ، ولعل أوضح ماكتبته كان بقلم محرر مسلم ، انتقد استئثار متولي الوقف بمنافعه خلافاً لنصوص الوقفيات . وقد نشر هذا النقد في السنة التي سبقت الاتفاق مع وزير الداخلية ، وجاء بمناسبة الدعوة لفتح المزيد من المدارس العالية في القدس : « في هذه المدينة من دور الوقف والاراضي مايكفي دخله لإقامة ثلاث كليات ... وكل تلك الاوقاف خُصصت لمثلها . فلِمَ لا نقوم بشروط الواقفين وتتَّبع الامانة في تنفيذها ، فنَقسر بعض العائلات التي تعيش بمالها ، وتتربَّى على الكسل ، على أن تدفع نصف ما تأخذه لنُنْفقه في ترقية الأمة ؟ »(٨١) .

وكان هذا الاهتمام بموضوع الاوقاف عاماً بعد اعلان الدستور ،ومن أهم مظاهره برقية أرسلها الى الصدر الاعظم في استانبول عدد من أعيان القدس ، منهم اسماعيل الحسني والشيخ راغب الخالدي والشيخ حسام الدين والشيخ محمد طاهر أبو السعود ، وراغب النشاشيبي ، ومحمد يوسف العلمي وخليل الدجاني ، جاء فيها : « ان الدولة وعدت إرجاع الاوقاف الى حالها الاصلي وصرفها (كذا . المقصود صرف رَيْعها)في مصارفها

(٨٠) نص الاتفاقية موجود في المنار (المجلد ١٦ سنة ١٩١٣) ص ٦٣٨ ـ ٦٣٩ (النص التركي)، ٦٣٩ ـ ٦٤٠ (النص العربي) .

(٨١) صحيفة « المنادي » المقدسية في ١١ حزيران ١٩١٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاصلية التي كان شَرَطها الواقفون .»[٨٢] وعلّق على إهمال الاوقاف والمباني العامة في القدس ، وقابله بازدهار المصالح الاجنبية فيها ، أحمد عارف الحسيني مفتي غزة ومثلها في المجلس العمومي للمتصرفية (مجلس الشورى سابقاً) ، فقال : « لا أقدر أن أبيّن ما خامر شعوري من الاسى بعدما تجولت في أكثر شوارع هذا البلد المبارك ورأيت ما فيه من المساجد الخربة والمدارس الداثرة ، مع ماهي عليه من جسامة المؤسسات وفخامة المعاهد الاجنبية »[٨٢] .

هذه كلمة محزون بالغ قائلها بشأن « المساجد الخاربة » ولم يبالغ بشأن « المدارس الداثرة » وجسامة المؤسسات الاجنبية ، كما تبيّن فيما سبق من البحث . وقوله « الاجنبية » ينصرف الى النصرانية الاوروبية لا اليهودية . وبرهان ذلك ما قاله حاييم وايزمن الزعيم الصهيوني بعدما زار القدس في سنة ١٩٠٧ ، فبالغ هو أيضا بقوله إنه رأى لكل أمة من الامم موطىء قدم في المدينة الا أمة اليهود ، وان حيّهم (في المدينة القديمة) كان حقيراً يعيش سكانه على الصدقة ، وان كل المباني الفخمة في المدينة للاجانب وليس منها واحدة لليهود .[٨٣]

لاشك في نمو المصالح الاجنبية الذي استمر منذ انتهاء حرب القرم وفتح المدينة للاجانب . ومن أوضح الامثلة على ذلك ما وُجِد في سنة ١٩١٠ في شارع قصير امام القلعة من مصالحهم ، ابتداءً من أوله في الشمال الى آخره في الجنوب ، : مكتب شركة كوك البريطانية للسياحة، ثم القنصلية الاميركية ، ثم دائرة البريد التابعة لقنصلية النمسا ، ثم كنيسة

(٨٢) صحيفة « فلسطين » في ٣ كانون الثاني ١٩١٤ .

(٨٣) Chaim Weizmann, Trial and Error (Autobiography) (Lonodn, 1949), p. 169

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يسوع الانكليكانية ، ثم مدرسة البنين التابعة لجمعية تنصير اليهود البريطانية ، ثم الشركة الانكليزية ـ الفلسطينية (وهي بنك صهيوني أصله مسجل في لندن) ، ثم أملاك دير الأرمن ومدخل حارة اليهود(٨٤) .

وكلمة مفتي غزة لها مغزى آخر ، فقد جاءت على أثر تغيّر مهم في موقف ثراة المسلمين في القدس من المدارس الاجنبية . جاء فيما سبق أن السلطان عبد الحميد حرّم ارسال أبناء المسلمين اليها ، والمشهور ،بحسب شهادة مبشري الانكليز ، أن أمر السلطان قد أطاعه المسلمون ، حتى إن بعض أبنائهم الذين كانوا في المدارس الاجنبية قد تركوها،فظلت مقصورة على أبناء الطوائف النصرانية ، ولم يتغيّر ذلك الا في أوائل القرن العشرين والغالب أ ن سببه الرغبة في تعلّم اللغات الاجنبية ، فأخذت بعض العائلات الاسلامية ترسل أبناءها الى مدارس الانكليز والفرنسيس .

والمدارس الاجنبية التي اشتهرت في القدس حينئذ كانت مدرسة سانت جورج (عُرفت بمدرسة المطران) تحت اشراف الاسقف (المطران) الأنكليكاني ، والكلية الانكليزية (مدرسة الشبان سابقا) تحت اشراف الجمعية الكنسية التبشيرية (البريطانية) ، وكلية الفرير الفرنسية ،ودار المعلمات في بيت جالا (بقرب القدس) تحت اشراف الجمعية الامبراطورية الروسية ، ومدرسة شلنّر الصناعية الالمانية . والمدارس التي أقبل عليها المسلمون كانت مدرسة المطران والكلية الانكليزية وكلية الفرير . ولم يكن بجانب هذه المدارس الاجنبية أو بجانب المدارس العثمانية الرسمية مدرسة أهلية يُعتدّ بها غير (روضة المعارف الوطنية) التي أسست في

(٨٤) J. E. Hanauer, Walks About Jerusalem (London, 1910), p. 9

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سنة ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م فضاهت الاجنبية في برنامجها وفاقت العثمانية في تعليم اللغة العربية . (أما مدارس اليهود القديمة والحديثة فليست من اختصاص هذا البحث) .

كل ماجاء من التفصيل في الصفحات السابقة يدل دلالة واضحة على التغير المستمر في معالم القدس وسكانها منذ اصدار الخط الهمايوني في سنة ١٨٥٦ . وازداد هذا التغيّر ازدياداً ظاهراً في أواخر القرن التاسع عشر وفي السنوات التي سبقت اعلان الحرب العالمية الاولى . ومن أبرز مظاهر التغيّر سلوك المهاجرين من يهود روسيا . وفيما يلي مثلان على ذلك في مدينة القدس فقط دون الاشارة الى مثله في أماكن أخرى في فلسطين . جاءت جماعة من مهاجري اليهود من بُخارى في آسيا الوسطى وسكنت في ضاحية من ضواحي القدس الى الشمال الغربي من باب العامود ، بقرب أراضي مدرسة شْنِلّر الالمانية . وكان البخاريون من رعايا روسيا فتمسكوا بالجنسية الروسية كما تمسك بها اليهود الذين جاؤوا من روسيا في أوروبا للسبب نفسه ، وهو استغلال الامتيازات الاجنبية . ومن مساخر القدر أن يعتدي هؤلاء اليهود على حقوق زوجة القنصل البريطاني السابق جيمس فِنّ في قطعة أرض مجاورة عُرِفَت بِكَرْم الخليل . كان القنصل المذكور لشدة محبته لليهود وحرصه على اسعاف فقرائهم يسمى نصف يهودي ، وقد أنفق مالا على ذلك الكرم حيث شغّل كسالى اليهود ، ولهذا الغرض استدان من مرابي اليهود بفائدة فاحشة أدت الى افلاسه . وقد ورثت زوجته الكرم واستثمرته بواسطة وكيل مقدسي عثماني . وفي خريف سنة ١٩٠٨ منع اليهود البخاريون الوكيلَ من الوصول الى الكرم ببناء حائط حجري على عرض الطريق الوحيدة المؤدية اليه . وعجزت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السلطات العثمانية المحلية عن حماية الوكيل • وهذه التفاصيل واردة في تقرير من القنصل البريطاني استنكر فيه موقف زميله القنصل الروسي « الذي حمى البخاريين من طائلة قانون هذه البلاد »[٨٥] (كان يجدر بهذا القنصل أن يتذكر أنه هو أيضا كان يحمي الرعايا البريطانيين على هذه الصورة) •

هذا مثل على مقابلة الاحسان بالاساءة ، أما المثل التالي فيدل على محاولة استغلال التسامح الاسلامي • تقدّم ذكر اليهودي البريطاني الذي طلب في سنة ١٨٤٠ إذناً لتبليط « مبكى اليهود » أي الرصيف الواقع أمام حائط البراق (جزء من السور الغربي للحرم الشريف) حيث اعتاد أتقياء اليهود الوقوف للبكاء أو الصلاة • وجاء في الامر الرسمي الذي رفض الطلب هذه العبارة « وأن يحذروا اليهود من رفع الاصوات واظهار المقالات ويمنعوا عنها ، فقط تعطى لهم الرخصة بزياراتهم على الوجه القديم » • فلما كثُر عددُ اليهود في القدس بعد ١٨٨٢ ، وكثر بينهم الصهيونيون ، والذين كانوا تحت حماية اجنبية ، والذين اتخذوا الدين واسطة للسياسة ، حاول بعضهم تغيير الحالة الراهنة ، فأخذوا يجلبون معهم كراسي للجلوس عليها ، وستاراً يضعونه بين الرجال والنساء ، فتُسَدّ بذلك طريق سكان البيوت المجاورة على أرض الوقف • وهذا كان خلافاً للعُرف القديم ودون إذن متولي الوقف • فكتب هذا شكوى الى مفتي القدس والمحكمة الشرعية ودائرة الاوقاف ، فكان الرأي ان ما حاوله اليهود بدعة،قد يتخذونه سبباً لادعاءشيءمن الملكية فيالرصيفأوالحائط•

(٨٥) دار الوثائق العامة في لندن

Fo/195/2287 : Consul Blech's report (27 October, 1908)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورفعت الاوراق الى المتصرف فدرسها المجلس العمومي في ١٢ تشرين الثاني من السنة المالية العثمانية ١٣٢٧ (= ١٩١١) وأمر بإبقاء القديم على قدمه ومنع اليهود من تغييره (٨٦) .

ومما يجدر ذكره أن أحد أعضاء المجلس العمومي للمتصرفية حينئذ كان يهودياً (وتناوب العضوية ألبرت عَنتابي وداود يَلين) . وكان المجلس حينئذٍ مؤلفاً من ثلاثة ممثلين عن القدس (ممثل واحد لكل من المسلمين والنصارى واليهود) ومن ثلاثة ممثلين عن يافا والرملة وكلهم مسلمون ، ومن أربعة عن غزة وبئر السبع أحدهم نصراني ، ومن ممثلَين مسلِمَين عن الخليل . أما المجلس البلدي لمدينة القدس فكان مؤلفاً من رئيس مسلم وخمسة أعضاء (اثنين من المسلمين وواحد من النصارى وواحد من اليهود العثمانيين) . ومثّل المتصرفية في دورة مجلس النوّاب (المبعوثان) التي سبقت اعلان الحرب في سنة ١٩١٤ : سعيد الحسيني وفيضي العلمي وراغب النشاشيبي (ومثّل سنجق نابلس توفيق حماد وأمين عبد الهادي ، ومثّل سنجق عكا عبد الفتاح السعدي) .

- ١٣ -

قد يُعَدّ نشوب الحرب العامة ودخول الدولة العثمانية فيها ختاما مناسبا لهذا البحث ، لولا ماحدث أثناء تلك الحرب من الحوادث السياسية المهمة التي كان لها أثر عظيم في تاريخ القدس وفلسطين . فخصص هذا

(٨٦) التفصيل وارد في تقرير لجنة التحقيق الدولية تحت رئاسة وزير خارجية السويد لَفْغرِن الذي نشر بالانكليزية في لندن في سنة ١٩٣١ (راجع الملحق ٧ والصفحة ٧٠) . وترجم التقرير الى العربية ونشرته مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت في سنة ١٩٦٨ تحت عنوان « الحق العربي في حائط المبكى في القدس » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القسم لإجمال تلك الحوادث[٨٧] حتى الحد الفاصل في شهر كانون الاول سنة ١٩١٧ ، عندما أخلى الجيش العثماني مدينة القدس ودخلها الجيش البريطاني ، فانتهى بذلك حكم اسلامي دام ثلاثة عشر قرنا وبدأ حكم أوروبي غيَّر مجرى تاريخ القدس وتاريخ فلسطين تغييراً خطيراً .

بدأت الحرب في أوروبا في آخر تموز سنة ١٩١٤ بين النمسا وألمانيا في جانب ، وروسيا وفرنسا وانكلترا في جانب آخر . ودخلتها الدولة العثمانية بجانب ألمانيا والنمسا في تشرين الثاني ، مع أنها أعلنت النفير العام احتياطا بعد نشوب الحرب حالا ، كما أعلنت أيضا الغاء الامتيازات الاجنبية . ويصف أحد أدباء القدس في مذكراته « مرور الجنود » عند باب الخليل، وتوديع بعض الشبان الذين ذكر منهم توفيق الحسيني وحلمي الحسيني وعلي النشاشيبي ، كما يصف مظاهرة في ساحة الحرم الشريف « للاحتجاج على روسيا وفرنسا وانكلترا والدعاء للدولة وحليفتيها بالنصر »[٨٨] . ولأن الكاتب كان نصرانيا لم يكن مع المصلين داخل المسجد الاقصى فلم يسمع قراءة اعلان الجهاد والدعاء للسلطان وجيوشه بالنصر بعد الخطبة . وكان ذلك الاعلان قد أصدره في استانبول شيخ الاسلام وهيئة العلماء ووقعه السلطان بصفته خليفة المسلمين وأمر بإبلاغه لهم في جميع البلاد التي تحت حكمه وتحت حكم أعدائه[٨٩] .

---

(٨٧) أما التفصيل ففي كتاب لنا باللغة الانكليزية يزيد على خمسمائة صفحة .
Anglo - Arab Relations and the Question of Palestine, 1914-1921 (London, 1977).

(٨٨) كذا أنا يادنيا (مذكرات خليل السكاكيني) نشرتها بعد موته ابنته هالة في القدس سنة ١٩٥٥ . راجع ص ٧٩ (تحت تاريخ ٢٨ أيلول) ، ص ٨٣ (تحت تاريخ ١٨ تشرين الثاني)

(٨٩) لم تنشر الصحف التركية اعلان الجهاد الا بعد أن ردت الدولة العثمانية متأخرة على اعلان روسيا وفرنسا وبريطانيا الحرب عليها . راجع النص التركي لاعلان الجهاد في صحيفة « صباح » الصادرة في ٦ محرم سنة ١٣٣٣ (= ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٤).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخافت بريطانيا من هذا الاعلان وأثره على المسلمين في الهند وفي الامبراطورية البريطانية عامة،فأسرعت بمحاولة اجتذاب العرب الى جانبها، فأصدرت السلطات البريطانية في القاهرة منشورا وجهته الى العرب في شبه الجزيرة وفلسطين وسورية والعراق باسم الحكومة البريطانية ، يردّ على ماجاء في اعلان الجهاد ، ويؤكّد أن بريطانيا لاتنوي امتلاك أي جزء من البلاد العربية لا بالاحتلال ولا بالحماية ، ويدعو العرب «الشرفاء الاذكياء» أنْ لا يصدّقوا ما قيل في المساجد والصحف من أن بريطانيا هي عدوة الاسلام وتريد احتلال العراق وسورية ، ويدعي المنشور أن بريطانيا مشهورة بالوفاء بالوعد ، وهي تعد العرب ، اذا أعلنوا استقلالهم عن تركيا أن تعترف به هي وحلفاؤها ، وينتهي بهذه العبارة : « أنتم رؤساء العالم الاسلامي .. فاغتنموا الفرصة وثقوا بمساعدة بريطانيا»(٩٠) والملاحظ في هذا المنشور أنه ينص نصاً صريحا على جعل فلسطين من البلاد العربية التي وعدت بريطانيا من تلقاء نفسها أن تعترف باستقلالها . وهذا الوعد جاء قبل الاتفاق بين الشريف حسين بن علي وهنري مكماهون: « نائب ملك بريطانيا » بعشرة أشهر .

يصعب تقدير أثر هذا المنشور وأمثاله التي كان يبثها الاسطول البريطاني على شواطىء البحر الابيض المتوسط وشواطىء البحر الاحمر أثناء الحرب . لكنه يمكن استنتاج خطرها من الاحتياط الذي اتخذه أحمد جمال باشا حالا بعد وصوله الى سورية وفلسطين حاكما عاما وقائدا للجيش الرابع مع صلاحية تشمل الحجاز واليمن ، اذ حذّر الناس

(٩٠) اكتشفنا النص الانكليزي لهذا المنشور في سجلات وزارة الخارجية البريطانية في الملف رقم FO/141/710 وبحثناه في كتابنا المذكور في الهامش رقم (٨٧) أعلاه (ص ٤٢ ـ ٤٣) أما النص العربي فلم تحفظ منه نسخة في هذا الملف ، ولم يستطع موظفو دار الوثائق العامة ايجاده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من تداول هذه المناشير ، ومنع دخول جميع الصحف العربية التي كانت تصدر في مصر بعد أن وضعتها بريطانيا تحت الحماية ، وعطّل الصحف المحلية وأنشأ جريدة « الشرق » لنشر البلاغات الرسمية وأخبار الحرب. وكان ذلك كله عند البدء بإعداد حملة على قناة السويس والقوات البريطانية في مصر .

واستولى جمال باشا على المباني الروسية والفرنسية والبريطانية في القدس لايواء الجنود وخزن الذخائر الحربية . أما بناء المدرسة اللاهوتية الذي أقامه الآباء البيض بجانب كنيسة سانت حنه فقد استعمله جمال باشا لانشاء « كلية صلاح الدين الايوبي » بَعثاً للمدرسة الصلاحية ، ولكنه خلافا للشائع لم يستعمل بناء الكنيسة لهذا الغرض بل سلمه لعشاني من طائفة الكاثوليك وهو ألِكْسيوس عاقل ، وعين للكلية الشيخ عبد العزيز جاويش (المصري) مديراً مع عدد من العلماء والادباء الفلسطينيين والسوريين لتعليم العلوم الاسلامية والحلوم الحديثة باللغتين العربية والتركية ، تقرّبا من العرب الذين كانوا يشكون من التعليم باللغة التركية. وحلّ جمال باشا مشكلة رعايا روسيا من اليهود ، بتوسط القنصلية الاميركية ، حلاً انسانيا ، فخيّرهم بين اتخاذ الجنسية العثمانية والبقاء ، وبين الاحتفاظ بجنسيتهم الروسية والخروج . فخرج أحد عشر ألفا على سفن أمريكية الى مصر ، معظمهم من الموسرين وأصحاب المهن . أما سكان المستعمرات (نحو عشرة آلاف أو سدس السكان اليهود في فلسطين) فخرج كثيرون منهم أيضا ، والذين قعدوا كانوا من الرعايا العثمانيين أو أصبحوا كذلك بالاختيار . وبعد ذلك دخل عدد من اليهود جنوداً غير محاربين في الجيش العثماني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قدّم جمال باشا نفسه الى العرب في سورية وفلسطين مُجاهداً في سبيل الله تحت لواء الخلافة العثمانية ، ولكنه أضمر كرهه الشديد لحركة الاستقلال العربي وزعمائها . فلما أخفقت الحملة على مصر اتهم نخبة منهم بالخيانة وساقهم الى محكمة عسكرية عرفية حكمت بالاعدام على عشرة منهم كان أحدهم ، سليم عبد الهادي ، فلسطينيا من جنين ، وذلك في آب سنة ١٩١٥ . وكان هؤلاء من طلاب الاصلاح والادارة اللامركزية ومن أعضاء جمعيات علنية ، أما طلاب الانفصال والاستقلال عن الدولة فكانوا من أعضاء الجمعيات السرية التي لم يستطع جمال باشا كشف سرها . فهؤلاء هم الذين اتصلوا بشريف مكة الاميرحسين بن علي ووكلوا اليه قيادة حركتهم ومفاوضة الحكومة البريطانية بالنيابة عن الامة العربية : وليس هذا مكان تفصيل ذلك ، والمهم أن دراسة الوثائق البريطانية التي ظلت سرية حتى السنوات الاخيرة أثبتت أن فلسطين وفيها القدس كانت كما جاء في المنشور البريطاني المذكور أعلاه من البلاد العربية التي وعدت بريطانيا الاعتراف باستقلالها(٩١) .

رحّب الانكليز بالشريف وخاطبوه بأفخم الالقاب ، ولكنهم موّهوا أجوبتهم وراوغوا . أما هو فظلّ أثناء مكاتبتهم يخشى أن يكتشف جمال باشا صلته بالعدو واستعداده للثورة بمساعدة هذا العدو . وقد أحزنه لا بل أرعبه عودة جمال باشا لاتهام زمرة أخرى من زعماء سورية وفلسطين أمام محكمة عسكرية حكمت بشنق واحد وعشرين منهم في ٦ أيار سنة ١٩١٦ ، وكان بينهم ثلاثة من الفلسطينيين وهم القانوني سيف الدين

(٩١) راجع الفصل الثالث (ص ٦٤ـ١٠٠) من كتابنا « العلاقات البريطانية العربية ومسألة فلسطين ١٩١٤ـ١٩٢١ » مع الاهتمام بالصفحات الآتية : ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٠ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ، ٢٩٩ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠ ، ٤١٤ ، ٤٦١ . وراجع ملخص البراهين على الصفحات ٤٦٤ـ٤٦٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخطيب (حيفا) والتاجر محمد الشنطي (يافا) والضابط علي النشاشيبي (القدس) • وقد ردّ جمال باشا شفاعة الشريف بهم بغلظة فيها تهديد مقنّع ، فكان ذلك من أسباب الاسراع باعلان الثورة العربية،أي بعد شهر تماما من اعدام الزعماء العرب • وقد نجحت الثورة باستيلاء الشريف وأولاده على مكة وجدة وغيرهما ومحاصرة المدينة •

واستغلّ الانكليز اسم الشريف في دعايتهم واستفادوا من جيش الثورة عندما أصبح مَيْمَنَة في شرق الاردن للجيش البريطاني في غربه عند الزحف على فلسطين • ولكنهم لم يَفُوا بما وعدوا في منشورهم الاول ولا بما جاء بعده من الوعود ، فأرادوا جعل العراق من ملحقات امبراطوريتهم في الهند ، واقتسموا مع فرنسا سورية وفلسطين دون علم الشريف ، ووعدوا اليهود وطناً قومياً في فلسطين حتى قبل أن يحتلوها • وحدث ذلك بعد أيام من شنق الزعماء في سبيل استقلال بلادهم ، ومن اعلان الثورة العربية للغرض نفسه • ففي شهر أيار سنة ١٩١٦ عُقدت معاهدة سايكس ــ بيكو بين بريطانيا وفرنسا وحدّدت نصوصها مناطق الحكم المباشر وغير المباشر لكل من الدولتين في العراق وسورية وفلسطين، وجعل جزء من هذه مع القدس منطقة دولية يُعَيَّن شكلها بعد استشارة الشريف ، لكن الانكليز حلفاءه لم يستشيروه ، بل كتموا المعاهدة عنه ، وذهبوا في الكتمان الى حد الكذب عندما أخبروا الشريف جوابا على سؤاله أن المعاهدة لا وجود لها(٩٢) •

ومع هذا استمر الانكليز يستغلون اسم الشريف أدبيّاً ، ويستفيدون من الجيش العربي تحت قيادة فيصل حربيا • واستمرت الدعاية البريطانية

(٩٢) دار الوثائق العامة في لندن : الوثيقة رقم ١٠٣٣٧٩ وملحقاتها في الملف Fo/370/3380

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تحرّض الضباط والجنود العرب في الجيش التركي على الفرار والالتحاق بالجيش العربي « لتحرير العرب من الترك ... واعادة تأسيس الدولة العربية كما كانت في عهد أجدادكم . » وأسقطت الطيارات البريطانية على العرب المدنيين في المدن والقرى ومضارب البدو في جنوب فلسطين كثيرا من المناشير ومعها نداء بتوقيع الشريف وختمه ، وبعض التقارير التي كتبها الطيّارون يذكر بوضوح نجاح الدعوة الى استقلال العرب في جهات غزة وبئر السبع . قال أحدهم : « لقد حيانا العرب ... ولوّحوا لنا بقماش أبيض »(٩٣) . وكان من المخاطرين الذين لبّوا النداء أحمد عارف الحسيني ، مفتي غزة ، وعضو المجلس العمومي في متصرفية القدس، ومبعوثها الى المجلس النيابي في استانبول . فقد سار مع ابنه الضابط مصطفى عبر الصحراء لملاقاة الجيش العربي ، فاعتقلهما كشافة من الجيش التركي وأرسلتهما الى القدس حيث حكم عليهما بالاعدام : الاب شنقا وابنه رمياً بالرصاص . وكان ذلك في شهر آذار سنة ١٩١٧ .

وهذه السنة كانت شؤماً على فلسطين ، ففيها وعدت الحكومة البريطانية أن تبذل جهدها لتسهيل تأسيس وطن قومي لليهود في تلك البلاد ، أي أنها وعدت تأسيس وطن لقوم متفرقين في أنحاء العالم بداخل وطن قومٍ آخرين دون علمهم أو استشارتهم ، فكان الوعد بمثابة حكم غيابي على العرب في فلسطين أصدرته حكومة لم يكن لها حينئذ حق السيادة على فلسطين أو على الاقل حق الاحتلال ، اذ في يوم الاربعاء الحادي والثلاثين من شهر تشرين الاول ، عندما وافقت وزارة الحرب

(٩٣) تقارير الطيارين المحفوظة في دار الوثائق العامة في لندن في الملف AIR/1/2285/209/75/4

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البريطانية على نص الوعد[٩٤]، كان جيشها على أبواب فلسطين الى الجنوب من غزة، يحتل قطعة ضيقة من السهل الساحلي طولها سبعة عشر ميلا وعرضها سبعة أميال ، تشتمل على بلدة خان يونس وقرى رفح وبني سُهَيْلة وعَبَسان ودير البلح ، وفيها بضعة آلاف من السكان العرب ولا أحد من اليهود • (أمضى وزير الخارجية البريطانية آرثر جيمس بلفور نصّ الوعد يوم الجمعة في الثاني من تشرين الثاني وأرسله الى الصهيونيين)•

وفسّر بلفور معنى الوعد في الاجتماع المذكور فقال انه لا يعني تأسيس دولة يهودية حالا ، فهذا يتوقف على التطور السياسي التدريجي • وهذا ينطبق على ما أراده الصهيونيون ، وهذا ما فهمه العرب ، خاصتهم وعامتهم ، منذ البدء • وهذا ما فهمته صحيفة التايمس عندما نشرت نصّ الوعد تحت عنوان « فلسطين لليهود »[٩٥] ومعناه أن الاقلية اليهودية ستتنمو وان الاكثرية العربية ستتقلص حتى يصبح الغريب صاحب البلاد، ويُقْهَر هذا على أمره اما بالرضوخ لحكم أجنبي أو بالجلاء والإجلاء •

وقد تجاهلت الحكومة البريطانية تحذير المسلمين لها قبل اصدار الوعد بخمسة أشهر ، اذ عقد زعماؤهم اجتماعا عاماً في لندن حضره بعض أنصارهم من الانكليز ، وألقى الخطاب الرئيس عن مكانة فلسطين في الاسلام مترجم القرآن الى اللغة الانكليزية مَرْمَد يوك بِكثال ، وأُرسل بيان مطول الى الحكومة تدل السجلات الرسمية ان بلفور قد رآه • ولكنه مضى في عناده ، بل أصدر أمرا الى السلطات البريطانية في

(٩٤) دار الوثائق العامة في لندن ـ وقائع جلسات وزارة الحرب في الملف :
CAB/23/4, No. 261, Minute 12 :

(٩٥) راجع النص في صحيفة التايمس :
The Times (9 November, 1917) p. 7, col. 4

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القاهرة أن تمنع الصحف العربية من معارضة الوعد ، لهذا نشرت نصه جريدة المقطم دون تعليق • ولكن أحد محرريها فارس نمر اشترك مع فوزي البكري ورفيق العظم والفلسطيني سليمان ناصيف في ارسال برقية احتجاج الى بلفور منعت الرقابة ارسالها رأساً • فقال الاربعة آن فلسطين في سورية كالقلب في الجسم ، وإن مكانتها عند المسلمين والنصارى لا تقل عن مكانتها عند اليهود وإنه ليس من العدل أن يفضّل اليهود على العرب من المسلمين والنصارى(٩٦) •

واحتج المسلمون في لندن مرة أخرى وأعربوا هذه المرة عن خوفهم على المسجد الاقصى • وكتب القانوني المؤرخ سيد أمير علي الى وزارة الخارجية مبيّنا أهمية فلسطين والقدس عند المسلمين وخطر وضعهما تحت حكم اليهود • واحتج في الوقت نفسه على وصف زحف الجيش البريطاني في فلسطين نحو القدس كأنه حرب صليبية(٩٧) فكيف يصح ذلك مع وجود عشرات الآلاف من الجنود الهنود المسلمين في الجيش البريطاني؟ (وكان بامكان السيد أمير علي أن يقول أيضا إن ميمنة الجيش البريطاني كانت مكونة من الجيش العربي تحت قيادة الامير فيصل ابن شريف مكة،والغالب أن سبب عدم ذكر ذلك هو معارضة مسلمي الهند للثورة العربية التي كانت في نظرهم مضرة بالوحدة الاسلامية تحت راية الخلافةالعثمانية)•

وهذا يشبه ما كتبه جمال باشا في مذكراته بعد خمس سنوات ، اذ قال ان إخفاق حملته على مصر كان سببه « خيانة » الشريف ، وان الانكليز لم يجسروا على عبور قناة السويس والزحف على فلسطين الا بعد أن اتفقوا

(٩٦) دار الوثائق العامة في لندن ـ الملف رقم Fo/114/654, p. 312-313

(٩٧) راجع المقالة الافتتاحية في صحيفة التايمس :
The Times (11 December, 1917), p. 7, col. 6:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معه[٩٨] . ومعنى ذلك أن الانكليز أمّنوا بذلك الاتفاق صداقة العرب في فلسطين فسهّلت هذه الصداقة تغلغلهم فيها . وعندما اقترب الانكليز من القدس أعاد جمال باشا اتهامه للشريف بالخيانة ، بل حمّله مسؤولية خسارة المدينة التي خلّصها صلاح الدين للاسلام من أيدي الصليبيين.

ومع هذا فقد دافع الجيش العثماني عن القدس دفاع الابطال ،رغما عن قلةٍ في العدد والعُدَد بالنسبة الى الجيش الانكليزي.ولكن الحكومة العثمانية رأت احتراما لقداسة المدينة أن لاتعرضها لأخطار الحرب ، ففي اليوم الثامن من كانون الاول سنة١٩١٧دعا المتصرف عزت بك كلاًّ من المفتي كامل الحسيني ورئيس البلدية حسين سليم الحسيني الى مكتبه وبلّغهما أن الجيش العثماني سينسحب من المدينة وانه هو سيغادرها حالا ، ثم سلّم رئيس البلدية كتابا باللغة التركية موجها الى قيادة الجيش الانكليزي هذه ترجمته :

« الى القيادة الانكليزية . في اليومين الاخيرين سقطت القنابل على القدس الشريف ، المدينة المقدسة عند كل ملّة . ولما كانت الحكـــومة العثمانية حريصة على حماية الاماكن المقدسة فيها من الخراب ، فقد أمرت سحب عسكرها من المدينة،وعيّنت موظفين للمحافظة على الاماكن الدينية ككنيسة القيامة والمسجد الأقصى . ولما كنت آمل أن تتبعوا أنتم هذه الخطة أيضا ، فاني مرسل لكم هذا الكتاب مع وكيل رئيس البلدية حسين بك الحسيني »[٩٩] .

---

(٩٨) راجع الترجمة الانكليزية للمذكرات :
Memoirs of a Turkish Statesmen (London, 1922), p. 139 168, 169:

(٩٩) النص التركي وارد في تاريخ القدس لعارف العارف : ص ٣٨٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتمّ انسحاب الجيش العثماني من القدس في الصباح الباكر من اليوم التاسع من كانون الاول • فخرج بعدها رئيس البلدية الذي كان يتكلم الانكليزية ، ومعه مدير الشرطة وبعض الموظفين ومعهم علم أبيض ، الى ظاهر المدينة في الغرب • وهناك سلّم رئيس البلدية كتاب المتصرف الى الجنرال سير جون شي Sir John Shea ، فلما علم القائد العام السر ادموند أللنّبي أن المدينة قد سلّمت أمر أن لايدخلها جندي بل يقف الحرس على أبوابها الى أن يدخلها هو في الحادي عشر من الشهر • واشتمل موكبه على مشلي الدول المتحالفة ولكن لم يكن فيه مشل للعرب • والسبب في ذلك معارضة المندوب السامي البريطاني في القاهرة الذي ذكر سببا سخيفا لذلك وهو أن وجود فيصل أو مشل آخر للشريف قد يُفهم منه أن الحكومة البريطانية توافق على تقلده خلافة المسلمين !

دخل أللنبي راجلا من باب الخليل ، ومشى مع حاشيته الى درج الباب الشرقي للقلعة حيث كان في استقباله رئيس البلدية ورؤساء الطوائف المختلفة في المدينة • وهنا قُرِئَ بأمره منشور وضعته وزارة الحرب في لندن ، فسمعه أهل المدينة بالعربية والعبرية واليونانية ، ثم عُلّق في أماكن مختلفة في المدينة • وقُرِئ المنشور أيضا بالانكليزية والفرنسية والايطالية والروسية • والترجمة العربية قليلة الدقة مضطربة التركيب، ومن اسباب ذلك صعوبة الاصل الانكليزي وكثرة ما فيه من الصفات التي قد يفهمها النصراني في تلك اللغة ، لكن يصعب فهمها بعد ترجمتها ترجمة حرفية الى اللغة العربية • وفي المنشور فقرتان رئيسيتان ، الاولى تُعلِن الحكم العرفي العسكري ، والثانية تُبقي القديم على قدمه في الاماكن المقدسة • وهو موجه « الى سكان القدس المباركة والذين يقطنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بجوارها » • وفيما يلي ترجمة الفقرة الثانية :

« بما أن أتباع الديانات الثلاث الكبرى يحترمون مدينتكم ويحبونها، وبما أن تربتها قد قُدِّست بصلوات وزيارات الثقات من أتباع تلك الديانات الثلاث على مرِّ القرون ــ أُعلن لكم أن كل بناء مقدس فيها ، وكل بقعة مقدسة ، وكل مزار ، وكل أثر قديم ، وكل وقف خيري ، وكل مكان اعتاد اتباع تلك الديانات الصلاة فيه ، سيحافظ عليه وسَيُحْمى ، بحسب عقائد وعادات الذين يعتقدون قداسته »(١٠٠) •

بهذا ينتهي البحث ، أي عند آخر سنة ١٩١٧ • وقد فصلنا حوادث السنوات التالية في القدس وفلسطين بكتب ورسائل باللغة الانكليزية ذُكر بعضها في هوامش هذا البحث ، وأهمها : (١) العلاقات البريطانية العربية ومسألة فلسطين (٥٢٣ صفحة) ؛ تاريخ سورية الحديث المشتمل أيضا على تاريخ لبنان وفلسطين (٤٤١ صفحة) ؛ (٣) الاوقاف الاسلامية في القدس : أصلها وتاريخها واغتصاب اسرائيل لها ؛ (٤)الرسالة القدسية للامام الغزالي (مع شرح ومقدمة) ؛ الغزالي في القدس ودمشق (مقالة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق) •

في أول رمضان ١٣٩٩

٢٤ تمـــوز ١٩٧٩ **عبد اللطيف الطيباوي**

---

(١٠٠) وصف اللنبي دخوله المدينة والاحتفال بقراءة المنشور بحضوره في برقية أرسلها في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم نفسه • راجع الملف FO/371/3061, paper 236700

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ملحـــق

هل كان اليهود أكثرية سكان القدس قبل سنة ١٩١٤ ؟

بعد أن احتلت اسرائيل مدينة القدس العربية في سنة ١٩٦٧ أخذت الدعاية الصهيونية تزعم أن أكثرية سكان القدس من أواسط القرن التاسع عشر الى الحرب العالمية الاولى كانت من اليهود . فما هي الحقيقة ؟ يرى كل مَن قرأ ما سبق من هذا البحث فساد هذا الزعم اجمالا وهذا الملحق هو لاثباته تفصيلاً . بيَّنا أن الصليبيين أفنوا جميع مَنْ كان فيها من اليهود ، فلما خلَّصها صلاح الدين سمح لأقلية من نصارى الشرق وأقلية أقل منها من اليهود أن تقيم في المدينة مع أكثرية ساحقة من المسلمين . ثم بيَّنا أن الكتب التي تذكر عدد سكانها يناقض بعضها بعضاً لأن مافيها من الارقام قائم على الحدْس والتخمين لا اليقين والتحقيق . وأخيرا نقلنا ملاحظة عالم بريطاني من جامعة كامبردج أقام في القدس ونشر عنها كتابا في سنة ١٨٤٢ ، وهي أنه يصعب التوفيق بين ما تذكره المصادر المختلفة عن عدد السكان ، لأن الحكومة العثمانية لم تُحصهم احصاءاً رسميا ، وقلنا إن هذه الملاحظةظلت مطابقة للواقع حتى سنة ١٩٢٢ ، عندما تمَّ أول احصاء رسمي في تاريخ فلسطين الحديث ، تحت ادارة حكومة الانتداب البريطاني . ونتائج هذا الاحصاء التي نلخصها فيما يلي تفضح سُخف كل ما سبق من تخمين ومبالغة واختلاق .

أما أسباب التضارب في التخمين ، والمبالغة في التقدير ، والجرأة في الاختلاق فكثيرة نذكر منها : اعتماد بعض الكتاب على أقوال جهلاء لم يكن بوسعهم معرفة حقيقة الامور في احصاء عدد السكان ، وسذاجة بعض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مبشري البروتستانت الانكليز الذين كانوا يحاولون تنصير اليهود فاعتبروا وصول أي عدد منهم الى القدس دليلا على صِدق النبوة ، ونشر أرقام في دليل مشهور مستمدة من يهودي من سكان القدس دون المقابلة مع المصادر النصرانية والاسلامية ، ونقل اللاحق من الكُتّاب عن السابق دون نظر أو تحقيق . وهذه بعض الامثلة على ذلك :

(١) في سنة ١٨٥٨ زعم قنصل بريطاني اشتهر بحب اليهود أن عددهم في القدس كان حينئذ ٨٫٠٠٠ نسمة ، أو على زعمه نصف عدد السكان (والنصف الآخر قسّمه بالتساوي بين المسلمين والنصارى) . وهذا الكلام هو عن المدينة القديمة داخل الاسوار ، لان المدينة الجديدة خارجها لم تكن بعد موجودة . (كيف حشر هذا القنصل نصف السكان في ثُمْن مساحة المدينة أي الحي اليهودي ؟) .

(٢) في سنة ١٨٧٦ صدرت الطبعة الاولى من دليل بَدِكَر ، فقدّرت مجموع سكان القدس بنحو ٢٤٫٠٠٠ نسمة (أي ٤٫٠٠٠ من اليهود و ٧٫٠٠٠ من النصارى و ١٣٫٠٠٠ من المسلمين) . فاذا قيس هذا التقدير على ما زعمه القنصل ظهر أن عدد اليهود قد انخسف الى نصف ما كان عليه قبل ثماني عشرة سنة ، وتضاعف عدد المسلمين أكثر من ثلاث مرات في المدة نفسها . فهل هذا يُصَدَّق ؟

(٣) في سنة ١٨٩٨ صدرت طبعة جديدة من الدليل المذكور اشترك في إعدادها يهودي من سكان القدس ، فنسي ما جاء في الطبعة الاولى وزعم أن سكان المدينة كانوا ٤١٫٠٠٠ نسمة من اليهود ، و ١٢٫٠٠٠ من النصارى ، و ٧٫٠٠٠ من المسلمين . ومعنى هذا الزعم أن عدد اليهود قد تضاعف عشر مرات منذ الطبعة الاولى وأن عدد النصارى أصبح ضعف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ماكان عليه تقريبا ، ونقص عـدد المسلمين الى نصف ما كان عليه . فهل هذا يُصَدَّق ؟

(٤) في سنة ١٩٠٥ أصدر مبشر بروتستانتي (أصله يهودي متنصِّر) كتابا في صـورة دليل زعم فيه أن عدد اليهود في القـدس قد ازداد من ٨٫٠٠٠ في سنة ١٨٤٦ الى ٦٤٫٠٠٠ في سنة اصدار الكتاب . ولم يذكر برهاناً على ذلك سوى ما رآه هو من صدق النبوة !

(٥) في سنة ١٩٠٧ قدَّر قنصل بريطاني آخر مجموع سكان القدس بنحو ٨٠٫٠٠٠ وزعم أن عدد اليهود بينهم كان ٥٥٫٠٠٠ (أي أن عددهم نقص من ٦٤ ألف الى ٥٥ ألف في سنتين !)

من الواضح أن الارقام المذكورة في المصادر السابقة يلعن بعضهـا بعضا ، وأنها كلها صدرت عن جهْل أو سُخْف أو غَرَض . وهذا هو البرهان : أصدرت السلطات البريطانية في آخر سنة ١٩١٨ تقديرا رسميا لعدد اليهود في جميع فلسطين فكان ٥٥٫٠٠٠ نسمة (فكيف كان عددهم أيضا ٥٥٫٠٠٠ في القدس وحدها قبل احدى عشرة سنة ؟)

وأصدرت السلطات البريطانية أرقاماً خاصة بهجرة اليهود الى فلسطين تطبيقا لسياسة وعد بلفور ، فيما يلي خلاصتها نقلا عن تقرير لجنة شُو الرسمي (صفحة ١٠١) :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين :

من شهر كانون الثاني (يناير) الى شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٩	١ر٦٤٣
من شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩١٩ الى شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩٢١	١٥ر٠٧٩
من شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٢١ الى شهر كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢١	٤ر٧٨٤
سنة ١٩٢٢	٧ر٨٤٤
المجمـــوع	٢٩ر٣٥٠

وفيما يلي نتائج الاحصاء الرسمي الاول الذي تمّ في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ :

سكان فلسطين

المسلمون	٥٩٠ر٨٩٠
النصارى	٧٣ر٥٢٤
اليهـود	٨٣ر٧٩٤

سكان القدس

	المسلمون	النصارى	اليهود
المدينة القديمة	٩ر٣٤٥	٧ر٢٦٢	٥ر٦٣٠
المدينة الجديدة	٤ر٦٦٨	٧ر٤٣٧	٢٨ر٣٣٢
المجمـــوع	١٤ر٠١٣	١٤ر٦٩٩	٣٣ر٩٦٢

مجموع سكان المدينة ٦٢ر٦٧٤

مجموع المسلمين والنصارى ٢٨ر٧١٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تدل هذه الارقام دلالة واضحة على استحالة كون اليهود أكثرية في المدينة القديمة في أي وقت من الاوقات ، ولا تدل أكثرية خمسة آلاف في المدينتين القديمة والجديدة معا في سنة ١٩٢٢ على اكثرية يهودية قبل تلك السنة للاسباب الآتية : (١) وجوب اسقاط حصة القدس من هجرة فوق العادة بلغت ٢٩ ألفا بين سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٢ ؛ (٢) وجوب اسقاط آلاف من من اليهود الذين أقاموا في ضواحي القدس قبل سنة ١٩١٤ وتمسكوا بجنسياتهم الاجنبية وحمتهم الامتيازات الاجنبية من دفع الضرائب لكن حرمهم القانون العثماني من أن يَنْتَخِبوا أو يُنْتَخَبوا، لانهم لم يكونوا من سكان المدينة قبل توسيع حدود بلديتها وقبل اكتسابهم الجنسية الفلسطينية في العهد البريطاني ؛ (٣) لم يدّعِ اليهود لا في أواخر العهد العثماني ولا في أوائل العهد البريطاني أنهم شكلوا أكثرية المدينة ، بل قبلوا بالوضع الراهن الذي دلّ على أكثرية اسلامية ، فالمجلس البلدي كان مكونا من أكثرية من المسلمين ورئيسه مسلم . وكل المجلس في أوائل العهد البريطاني مكوّن من أربعة أعضاء من العرب (المسلمين والنصارى) وعضوين من اليهود ، والرئيس عينته الحكومة من الاعضاء المسلمين في العهد البريطاني كما كان العُرْف في العهد العثماني . والاعضاء كلهم كانوا مُنْتَخَبين وعددهم يدل على نسبة السكان ضمن حدود البلدية. (وكان آخر عضو منتخب عيّن رئيسا الدكتور حسين فخري الخالدي وكان بالاضافة الى رئاسة بلدية القدس رئيس حزب سياسي وعضواً في الهيئة العربية العليا . فلما نفت الحكومة أعضاءها لأسباب سياسية عيّنت القاضي مصطفى الخالدي رئيسا للمجلس البلدي ، ولما توفي واختلف الاعضاء العرب مع الاعضاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليهود عينت مجلساً جديداً رئيسه وأعضاؤه من الموظفين البريطانيين).

يرى القارىء بعد حساب هذه العوامل الثلاثة سخف ما نُشِر قبل سنة ١٩٢٢ من تقدير وتخمين واختلاق . فاذا كان عدد اليهود في القدس قد بلغ في تلك السنة ٣٤ ألفاً فكيف أمكن أن يكون ٤١ ألفاً في سنة ١٨٩٨، أو ٦٤ ألفاً في سنة ١٩٠٥ ، أو ٥٥ ألفاً في سنة ١٩٠٧ ؟ واذا كان عدد اليهود في جميع فلسطين قد بلغ في سنة ١٩٢٢ نحو ٨٣ ألفاً فكيف ادعى الصهيوني اليهودي البريطاني هربرت صموئيل في مذكرة قدمها الى الوزارة البريطانية في سنة ١٩١٤ أن عددهم كان حينئذ مئة ألف ؟ وكيف ادعى الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن في سنة ١٩١١ أن عددهم كان مئة وخمسة وعشرين ألفاً ؟ لم يصحح الثاني زعمه ، أما الاول فاضطر الى ذلك عندما أصبح في سنة ١٩٢٠ المندوب السامي البريطاني في القدس فكتب في أول تقرير سنوي أن عدد اليهود ، بعد هجرة كثيرين منهم في السنتين السابقتين، لم يزد على عُشْر السكان وهو سبعون ألفاً .

عبد اللطيف الطيباوي

يرجى تصحيح الأخطاء التي وردت في القسم الأول من هذا المقال (القدس الشريف) المنشور في ج ٤ مج ٥٤ :

		الخطأ	الصواب
ص ٧٥٥	س ٥	ونبيك	وبنيك
ص ٧٥٨	س ٣	وقبلها	وقبلما
ص ٧٥٦	(الهامش)	pilgrim's	Pilgrims'
ص ٧٧٠	» ٢	كليس	كَليسَا
ص ٧٧٠	» ١٩	كما	كما قال
ص ٧٧٤	» ٩	فإيها	فأيُّها
ص ٧٧٥	(الهامش)	العنع	الضَّبع
ص ٧٧٧	س ٣	مايلاً	ماملاً
ص ٧٩٢	س ١٢	تصرف	متصرف
ص ٨٠٢	» ١١-١٢	لايعرف مصيره الآن	هو الآن في المتحف البريطاني
ص ٨١٢	» ١٣	فتفيوري	منتفيوري
ص ٨١٤	» ٧	سكانه	سكانها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net